



لم يعرف التاريخ الحديث تنظيمًا تمكّن من جمع كل المتناقضين في مواجهته والهجوم عليه، كما هو الحال مع تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، أو «الدولة» كما يحب أنصارها أن يسمّوها تبعًا لحصولها على بعض معالم الدول من حيث الأرض والسكان والقوة المسلحة، وإن لم تحظَ باعترافٍ من أحد.

هل قصد التنظيم ذلك، أم هي الظروف التي وضعته في هذا المربع؟

لا توجد إجابةٌ حاسمة، وإن بدا من بعض مفردات خطابه أنه لم يتجنب ذلك اعتقدًا من قيادته بالقدرة على مواجهة العالم أجمع والانتصار في المعركة من أجل استعادة الخلافة الإسلامية كما في عصورها الأولى، مع أنَّ سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام في حروبه كانت تتمثل في التدرج والعمل الحثيث على تفكيك الجبهات المقابلة.

هذا الواقع الذي يعيشه تنظيم الدولة يؤكد ابتداءً عبّية تلك التنظيرات التي نسبته إلى هذه الجهة أو تلك، إن كانت إيران أم النظام السوري، فضلاً عن أميركا وإسرائيل كما في بعض تجليات خطاب حلف إيران السابق، والذي أخذ يتغير مؤخرًا بالحديث عن لقاء ضمني مع «الأميركي والإسرائيلي» كما ذهب الشيخ نعيم قاسم، نائب الأمين العام لحزب الله مؤخرًا، وكما في الكثير من أدبيات الحزب في الفترة الأخيرة.

والنتيجة أننا إزاء تنظيم لا ينتمي لأحد، وهو متفرد بالفعل، من دون أن ينفي ذلك أن بدايته الأولى (تنظيم التوحيد والجهاد بزعامة الزرقاوي) قد حظيت بقوة دفع رسمية وشعبية كبيرة تبعًا لمواجهته مع مشروع الغزو الأميركي، شعبية من مشايخ وموسرين، ورسمية من بعض الأنظمة الخائفة من الغزو، ومن ضمنها النظام السوري للمفارقة، وربما أنظمة خليجية أيضًا، فضلاً عن إيران التي كانت سعيدة بوجوده لذات السبب ممثلاً في إفشال مشروع الغزو الذي كان يستهدفها.

هنا نفتح قوساً لتشير إلى فضيلةٍ كبيرة للتنظيم ممثلة في مساعدة كبيرة في إفشال مشروع رفع شعار «إعادة تشكيل المنطقة» كفطاء لتمرير الهيمنة الصهيونية عليها، وبالطبع بعد ترتيب تسويةٍ القضية الفلسطينية تلبي الطموحات الصهيونية

في أعلى تجلياتها بعد فشل مشروع أوسلو في تحقيق المطلوب.

الآن، وفي تجلياته الأخيرة دخل التنظيم في حروب ومتناقضات مع الغالبية الساحقة من الدول والتنظيمات بكل تناقضاتها، ويكتفي أن تتابع على سبيل المثال حساب المسؤول الشرعي لجبهة النصرة التي تنهل من ذات المرجعية الفكرية (السلفية الجهادية) على موقع «تويتر» لترى كيف أنه الأكثر هجاءً للتنظيم وتحذيرًا للأمة منه ومن غلوه، ويكتفي أن ينحاز ضده تبعًا لذلك أغلب رموز التيار السلفي الجهادي، من المقدسي إلى «أبو قتادة»، وقبلهم حشد من شيوخ التيار في الخليج، يكتفي بذلك كي ندرك هذا البعد.

إلى التيار السلفي الجهادي، نجد أن التيارات الإسلامية الأخرى لا تبتعد كثيراً في الموقف من التنظيم، وإن بدت أقل حدة تبعًا لوجود معارك أخرى تشغله، وفي العموم تقف غالبيتها، بما في ذلك العلماء المستقلون في ذات المربع من دون أن يكون لهم أو لها معارك مباشرة معه كما جبهة النصرة مثلاً، والسبب يتمثل في أنها تراه خطراً على المشروع الإسلامي من حيث تشويهه لمنطلقاته ولصورة الدين أمام العالم، ومن تابع شيخاً مشهوراً مثل سلمان العودة مؤخراً لا بد أنه لاحظ كيف تجاوز صمته السابق على التنظيم وشرع يهاجم سياسة الذبح التي يعتمدها، فيما سبقه كثيرون جداً من العلماء، وللمفارقة أنهم ينتمون إلى تيارات متناضضة جداً، إن كانت ضمن التيار السلفي نفسه، أم الإخواني، أم الصوفي أم الأزهري إلى جانب المستقلين.

في المعسكر الشيعي نجد العداء مستشرياً على نحو جنوني لتنظيم الدولة، وهو أمرٌ مفهوم بطبيعة الحال، ويشمل ذلك جميع المتناقضات في المعسكر المذكور، بما فيها المعادية للمشروع الإيراني.

في التيارات الأخرى غير الإسلامية، نجد أيضاً عداءً واضحًا للتنظيم، من اليساريين ومن القوميين، وهؤلاء للمفارقة كانوا مؤيدين له أيام مواجهته مع الغزو الأميركي للعراق، لكنهم اليوم لا يجدون حرجاً في دعم الضربات الأميركيّة التي توجّه له، من دون أن ننسى أنّ هؤلاء جميعاً يعادون التيار الإسلامي برمته، باستثناء الإسلام السياسي الشيعي، وبعضهم ينتمي لأقليات غير مسلمة.

نبقي في الإطار الشعبي، وهنا نفتح قوساً لنشير إلى أنّ حيرةً تنتاب الجماهير حيال التنظيم، أفله الغالبية السنّية، فهي من جهة ترتاح لمواجهته مع إيران وحلفها بعد غرورها وغطرستها، لكنها من جهة أخرى لا ترتاح لممارساته، وتحتار أيضاً في هويته.

على الصعيد الرسمي، يمكن القول إنّ التنظيم قد جمع في مربع العداء له جميع المتناقضات أيضاً، أكان من الأقطاب الدولية الكبرى، أم من الدول الإقليمية، أم الدول العربية، إذ إنها جميعاً تناصبه العداء، على تفاوت في منسوب الترجمة لذلك العداء كفعل على الأرض.

والسؤال الذي يطرح نفسه بطبيعة الحال هو: هل يمكن لتنظيمٍ لديه كل هؤلاء الأعداء أن يواصل تقدمه، أم سيأخذ في التراجع بمرور الوقت، وصولاً إلى تلاشيه أو تحوله إلى تنظيم سري يضرب هنا وهناك من خلال أدوات العنف الرخيص المتاحة من تخفيض وتججير؟

الجواب أنه سيبقى ما بقيت الأسباب التي منحته قوة الدفع، وهي: غرور إيران وغطرستها (في العراق وسوريا وسواهما)، هجمة الأنظمة على ربيع العرب و«الإسلام السياسي المعتدل»، ومن ضمن ذلك سياسة القمع والانسداد السياسي في دول عديدة، وربما بدرجة أقل الدعم الغربي للكيان الصهيوني.

العرب

المصادر: